المحاضرة الثالثة:ابن رشيق القيرواني

مولده و نشأته:

هو أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي نسبة إلى المسيلة(المحمدية) التي ولد بها سنة 370ه،القيرواني نسبة إلى القيروان التي هاجر إليها سنة 406ه،أبوه رشيق كان يعمل في الصياغة ،ومن ثم أخذ الولد صنعة أبيه.قرأ الأدب بالمحمدية و قال الشعر قبل أن يبلغ الحلم و اشتاقت نفسه إلى التزيد من ذلك و ملاقاة أهل الأدب، فرحل إلى القيروان التي كانت تشهد حركة علمية نشيطة،وتعلم على يد كبار رجالات العلم و الأدب هناك،من أمثال عبد الكريم النهشلي و أبي إسحاق الحصري و محمد بن جعفر القزاز و غيرهم.

مؤلفاته: كثيرة أشهرها: العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب . توفي بالمهدية سنة (456ه).

رأيه في الشعر:

طلع علينا ابن رشيق بكتابات عديدة أشهرها العمدة،عرض فيه لأكثر من مئة باب تناول فيها قضايا الشعر و أغراضه،وحشد كل الآراء التي ظهرت في المشرق و المغرب حتى عصره.

و لم يكن ابن رشيق راوية ناقلا فحسب، و إنما كان يعلق و يعطي رأيه في معظم الأحيان. في حديثه عن الشاعر يقول« وإنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بمالا يشعر به غيره، فإذا لم يكن لدى الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ أو ابتداعه أو صرف معنى من وجه إلى وجه آخر كان إطلاق اسم شاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير». فالشعر هو الشعور والإحساس والتأثر بالعالم الخارجي.

كما وضع تصنيفا للشعراء فيرى أن أشهر المولدين " أبو نواس" أبو تمام" البحتري" ابن الرومي،" ابن المعتز،" حتى جاء " المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس ثم يستدرك و يعود إلى بشار بن برد ويعتبره أشهرهم وأشعرهم، ثم ينتقل إلى حد الشعر وبنيته.

يقول في باب حد الشعر و بنيته:"الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء،و هي:اللفظ،و الوزن،و المعنى،والقافية،فهذا هو حد الشعر،لأن من الكلام موزونا مقفى و ليس بشعر؛لعدم القصد و النية،كأشياء أنزلت من القرآن،ومن كلام النبي صلى الله عليه و سلم، و غير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر".

فالشعر عنده يقوم أولا على القصد والنية ثم يأتي بعد ذلك اللفظ والوزن والمعنى والقافية، وهذا هو الجديد الذي أتى به لأن أي شعر يخلو من المقصدية يعد نظما على غرار الشعر التعليمي والألغاز والأحاجي.

رأيه في اللفظ والمعنى:

قرر ابن رشيق أن الناس في هاته القضية مذاهب، منهم من يؤثر المعنى على اللفظ ومنهم من يؤثر اللفظ على المعنى، والأكثرية مع تفضيل اللفظ على المعني، هذا وقد خص اللفظ والمعنى بباب مستقل سماه « باب اللفظ والمعنى » يقول: « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوي بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه...».

فهو يعمد إلى التمثيل في الشعر كالإنسان جسمه هو اللفظ وروحه هو المعني والعلاقة بينهما قوية مثل ارتباط الروح بالجسم، ،فالمعنى لا يأتيه الخلل والفساد إلا من جهة اللفظ فكلما كان اللفظ جميلا كان المعني أجمل،و إذا كان هذا هو رأي الأغلبية،فإن لابن رشيق رأيه الخاص الذي يوازن به بين الألفاظ و المعاني،بل إنه ليرجح كفة المعاني بمقدار ما ترجح الروح الجسم. وفي هذا مؤاخاة بين اللفظ والمعني.

وبهذا الكلام فإن الناقد قد آخى بين الألفاظ و المعاني في العمل الأدبي،و قال بتلازمهما و اشترط الجودة في كليهما.

قضية القديم والجديد:

خص ابن رشيق هاته القضية بباب سماه « باب القدماء والمحدثين» يقول : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا ببناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن حسن».

ثم يورد أمثلة تؤكد على أنه مع الجودة تقدم الزمن لصاحبها أو تأخر، وضد الرداءة أيضا ،ويؤكد أن امرؤ القيس وزهير و النابغة لم يتقدموا بتقدم زمنهم وإنما بحلاوة كلامهم وطلاوته مع البعد عن الركاكة. هذا هو الناقد المحايد، أما الشاعر فهو يروي عن ابن جني أنه قال: « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ ». وهكذا فإنه يعالج القضية معالجة مزدوجة، فهو قد نظر إليها نظرة نقدية موضوعية و نظرة ذوقية ذاتية.

رأيه في السرقات:

يري ابن رشيق بأن الحديث عن السرقات متسع جدا ولا يستطيع أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منها ،ذلك أن السرق فيه الغامض ولا يقدر على كشفه إلا البصير والحاذق بصناعة الشعر ونقده، وفيها الواضح المكشوف الذي لا يخفى عل الجاهل المغفل.

كما يرى أن السرق يكون في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، لا في المعاني المشتركة. ثم يعرض لآراء النقاد القدامى في القضية، ويطرح المشكلة من وجهة نظره وهو يرى أن السرقة على أنواع:

1/ سرقة اللفظ مع المعنى،2/سرقة المعنى مع تغير بعض اللفظ، 3/ وهناك سرقة تعتمد على تغيير بعض المعنى أو قلبه عن وجهة حتى يخفيه، ومن هذه الأنواع الثلاثة تتولد تفريعات عديدة لأوجه السرقات، وهنا قد أفاد من الحاتمي الذي ذكر مجموعة من المصطلحات تدخل في باب السرقة كالاصطراف، الانتحال، الإغارة، الغصب، المرافدة، الاهتدام، الإلمام، الاختلاف، الموالدة، العكس، الاختلاس...

وسنقتصر على ذكر بعض المصطلحات التي شرحها ابن رشيق في كتابه:

1-الاصطراف: هو أن يعجب شاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه.

2-الاختلاس: يمثل له بقول أبي نواس:

ملك تصور في القلوب مثاله ... فكأنه لم يخل منه مكان

ويرى ابن رشيق بأنه مختلس من قول: كثير عزة

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل مكان

3-الإغارة: وهو أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع فيه معني مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا فيروي له دون قائله، كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد :

ترى الناسَ ما سِرنا يَسيرونَ خَلفَنا وَإِن نَحنُ أَومَأنا إِلى الناسِ وَقَفوا

فقال الفرزدق: متى كان الملك في بني عذره إنما مضر وأنا شاعرها فغلب الفرزدق على البيت.

4-**المرافدة:** و هي أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له.

5-الانتحال : أن يأخذ شاعر شعر شاعر آخر وينسبه إلى نفسه .

6-**الادعاء :** أن يدعي غير الشاعر لنفسه شعر غيره .

المطبوع والمصنوع:

أفرد ابن رشيق بابا في عمدته سماه:المطبوع و المصنوع ، و يخبرنا من البداية بأن الشعر فيه المطبوع و هو الأصل الذي بني عليه، و فيه المصنوع .والشعر المصنوع نوعان ،مصنوع مهذب ،و متكلف .

وفي هذا تمييز بين المطبوع والمصنوع فلقد أبان على فهم أكثر نضجا من ابن قتيبة وهذا في النص الآتي: « ومن الشعر المطبوع والمصنوع، فالمطبوع الذي وضع أولا وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين، ولكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تحمل لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه احتياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنضيج والتنصيف » وعليه فمفهوم الطبع عند نقاد القرن 4ه. و عليه فالشعر عنده ثلاثة أنواع :

1-شعر مطبوع يصدر عن نفس صادقة تعيش مع الفطرة دونما تكلف،كبعض الشعراء الجاهليين و الإسلاميين و العباسيين.

2-الشعر المصنوع المهذب الذي هذبه صاحبه و نقحه،دون تكلف وسعي وراء المحسنات البديعية،وخير شاعر في هذا المجال زهير بن أبي سلمى.

3-الشعر المتكلف:الشائع بين الشعراء المولدين الذين يطلبون البديع و الزخرفة اللفظية.

هذه الآراء يمكن اعتبارها اللبنات الأولى في التأسيس للنقد الجزائري و المغربي القديم.

المراجع:

-ابن رشيق:العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده.
-محمد مرتاض:النقد الأدبي في المغرب العربي.
-عبد العزيز قلقيلة:النقد الأدبي في المغرب العربي.
-إحسان عباس:تاريخ النقد الأدبي عند العرب.
-بشير خلدون:الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي.